زئيف جابوتنسكي

عن الجدار الحديدي

[نُشر في ٤ تشرين الثاني، ١٩٢٣، لغة النص الأصلية: الروسية]

بخلاف القاعدة الممتازة- وهي بدء كل مقال بالخوض في فكرته المركزية- عليّ أن أبدأ هذا المقال بمقدمة، لا بل بمقدمة شخصية. يُعتبر كاتب هذه السطور عدوًا للعرب وأحد دعاة طردهم من البلاد، وما إلى ذلك. هذا غير صحيح، فمن الناحية الشعورية، لا يختلف موقفي تجاه العرب عن موقفي تجاه سائر الشعوب ويتجلّى في الفتور المؤدّب. أمّا من الناحية السياسية، فيتحدّد موقفي بناءً على مبدأين، أولهما: أن طرد العرب من فلسطين، بأية طريقة كانت، غير ممكن قطعًا، وسيبقى في فلسطين شعبان، على نحو دائم. أمّا المبدأ الثاني فهو أنني فخور بانتمائي إلى تلك المجموعة التي وضعت "خطة هلسينكي" (Helsingfors Plan)، تلك الخطة التي صغناها ليس لخدمة اليهود فقط وإنما لصالح جميع الشعوب، ومحورها الحقوق المتساوية للشعوب. وعلى غرار جميع اليهود، فإنني مستعد لأن أقسم، باسمنا وباسم ذريتنا، أن لا نخلّ بهذه المساواة في الحقوق، ولا نقدم على أية محاولة للطرد أو الاضطهاد.

كما يلاحظ القارئ، فإن هذه "عقيدة شخصيّة" تنادي برمّتها بالسلام. ولكن، وعلى صعيد آخر تمامًا، يُطرح سؤال حول ما إذا كان من الممكن الوصول إلى تحقيق أفكار حول السلام بطرق سلميّة، ذلك بأن الأمر لا يتعلّق بموقفنا من العرب وإنما بموقف العرب من الصهيونية.

بعد هذه المقدمة سننتقل إلى فكرة المقال.

[أ]

ليس ثمّة مجال للحديث، لا في الحاضر ولا في المستقبل المنظور، عن تصالح بين عرب فلسطين وبيننا يتحقق عن طيب

جابوتنسكي: ملهم اليمين الاسرائيلي

خاطر. إن تعبيري عن رؤيتي هذه للأمور بهذا الشكل وبهذه الصرامة لا ينبع من أنه يحلو لي أن أسبب الأسى لأشخاص طيبين وإنما لكي أجنبهم الوقوع في مثل ذلك الأسى، فجميع هؤلاء الطيبين، ما عدا "العميان منذ الولادة" بينهم، استوعبوا، بقواهم الذاتية، أنه من غير الممكن أبدا الحصول على موافقة طوعية من عرب فلسطين على تحويل فلسطين من بلاد عربية إلى بلاد ذات أغلبية يهودية.

إن لدى كل قارئ فكرة عامّة عن تاريخ الاستيطان في بلاد أخرى، واقترح على هذا القارئ أن يستذكر جميع الأمثلة المعروفة ويحاول، بعد تفحّص قائمة الأمثلة، إيجاد حالة جرى فيها الاستيطان بموافقة السكان الأصليين. ليس ثمّة حالة واحدة كهذه.

دومًا، حارب السكان الأصليون، متحضرين أو غير متحضّرين، وبعناد، ضد المستوطنين، سواءً أكانوا متحضرين أم غير متحضّرين. أضف إلى ذلك أنه لم يكن لأسلوب تصرّف المستوطن أي أثر على موقف أبناء المكان الأصليين تجاهه. إن رفاق كورتيز وبيزارو، أو قل آباءنا في عهد يهوشع بن نون، تصرفوا كلصوص، ولكن "الآباء المهاجرين" الإنكليز والسكوتلانديين، الطلائعيين الحقيقيين الأوائل في أميركا الشمالية، كانوا خير بني البشر، أصحاب المعايير الأخلاقية السامية الذين لم يسعوا إلى إيذاء الإنسان الأحمر البشرة فقط بل ولا الحشرات أيضًا، وآمنوا من صميم قلبهم أن في الصحراء الأميركية متسعا كافيا للبيض ولحمر البشرة أيضًا. يحارب ابن المكان من الأصليين ضد المستوطنين الأشرار وضد المستوطنين الأخيار، بنفس الدرجة من القسوة.

وفي هذا السياق، ليس ثمة مكان للسؤال حول توفّر الكثير من الأراضي الفارغة في هذا البلد أو ذاك. تدل الإحصائيات على أنه عاش في أرجاء الولايات المتحدة، في العام ١٩٢١، نحو ٣٤٠ ألفا من حمر البشرة، ولم يتجاوز عدد هؤلاء، في أفضل حال، ثلاثة أرباع المليون نسمة في كل المناطق الشاسعة الواقعة بين لابرادور وبين ريو- جرانادا. حينها لم يكن في العالم أي شخص ذي أفق واسع بما يكفي لأن يتنبأ سلفًا بجديّة خطر حدوث عملية "طرد" حقيقي يهدد السكان الأصليين من طرف الأغراب الذين وصلوا إلى المكان مؤخرًا. لقد حارب السكان الأصليون ليس لأنهم خافوا من الطرد، عن علم أو وعي بأن ذلك سيحدث، وإنما ببساطة لان أحدا من السكان الأصليين، في أي مكان وأي زمان، لن يستطيع القبول بأي شكل من أشكال الاستيطان.

كل شعب من الشعوب الأصلانية، متحضرا كان أم متوحشا، يرى في بلاده بيتا قوميا، ويرغب في أن يكون ويبقى إلى الأبد ملك تلك البلاد بكاملها. كذلك لن يأذن، راضيا، لأي مالك جديد أو لأي شريك أو شركاء بإدارة اقتصادها أو الدخول إليها.

هكذا هي الحال بالنسبة للعرب أيضا. يحاول أنصار السلام بيننا إقناعنا بأن العرب إما أغبياء يمكن خداعهم عبر صياغة "مُخفّفة" لأهدافنا الحقيقية، وإما أنهم قبيلة جشعة سوف تتنازل لنا عن أحقيتها على فلسطين مقابل مكاسب ثقافية واقتصادية. إنني أرفض قبول هذا الرأي بشأن عرب فلسطين، بشكل قاطع. من الناحية الثقافية، فإنهم تخلّفوا عنا بنحو ٥٠٠ عام، ومن الناحية الروحانية، لم يوهبوا مثلنا قدرة التحمّل ولا حتى قوة الإرادة- بهذا تنتهي الفروق الداخلية بيننا.

إنهم مثلنا تماما عارفون بشؤون النفس، دقيقو الملاحظة، تتلمذوا مثلنا على أسلوب المحاججة الحادّة، ومهما روينا لهم فسوف يحسنون فهم ما يدور في أعماق نفوسنا تماما مثلما نفهم نحن ما يدور في أعماق نفوسهم. إنهم ينظرون إلى فلسطين بنفس الحب الغريزي وبنفس التعصّب العضوي اللذين رافقا علاقة الأزتيكيين مع مكسيكهم، والسيوكسيين مع فيافيهم (صحرائهم). إن وهم "عشّاق العرب" بيننا بأنهم سيرضون بتحقّق الصهيونية مقابل مردودات ثقافية واقتصادية يجلبها معه المستوطن اليهودي نابع من نظرة ازدراء أساسها فكرة مسبقة عن الشعب العربي، ومن آراء غير مسندة تعتبر هذا العرق جماعة رعاع يلهثون وراء المال وعلى استعداد للتنازل عن وطنهم مقابل

شبكة خطوط سكة حديدية جيدة. إن عرض الأمور على هذا النحو لا أساس له. يقولون إنه من الممكن رشوة بعض الأفراد العرب في أوقات متقاربة، لكنه لا يجوز الاستنتاج من ذلك أنه يمكن لجميع عرب فلسطين أن يبيعوا شعورهم الوطني المتشدّد، ذلك الشعور الذي لم يبعه حتى شعب بابوا، فكل شعب يحارب المستوطنين طالما بقي لديه بصيص أمل في التخلص من خطر الاستيطان. هكذا فعل عرب فلسطين، وهكذا سيفعلون طالما بقي لديهم بصيص أمل.

[ب]

كثيرون بيننا ما زالوا، لسذاجتهم، يعتقدون أن نوعا من سوء الفهم قد وقع: لم يفهم العرب قصدنا فخرجوا ضدنا، ولو كان بالإمكان أن نوضّح لهم كم هي عفيفة وقليلة نوايانا لمدوا لنا يدهم. هذا خطأ ثبت في الماضي في مرّات كثيرة، وسأورد هنا مثالا من بين أمثلة كثيرة. قبل ثلاث سنوات، في أثناء زيارة السيد سوكولوف إلى فلسطين ألقى خطابًا طويلا حول سوء الفهم ذاك. لقد أثبت بالأدلة القاطعة أن العرب يرتكبون خطأ فادحًا إذا كانوا يظنون أننا نريد أن نأخذ أملاكهم أو نطردهم أو نضطهدهم، لا بل حتى أننا لا نسعى إلى دولة يهودية. إننا نسعى إلى نظام يمثل عصبة الأمم. ردّت صحيفة "الكرمل" على هذا الخطاب بمقالها الافتتاحي الذي أنقل فحواه هنا من الذاكرة ولكن مع توخّي الدقة الكاملة: الصهاينة منفعلون دون طائل: ليس هناك أي سوء فهم. السيد سوكولوف يقول الحقيقة، ولكن العرب يعرفونها تماما، بدونه. واضح أن الصهاينة لا يحلمون الآن لا بطرد العرب ولا باضطهادهم ولا حتى بدولة يهودية؛ واضح أنهم يسعون الآن إلى أمر واحد فقط – أن لا يعرقل شيء قدومهم. يعد الصهاينة بأنهم سوف يهاجرون إلى البلاد بما يتوافق مع القدرة الاقتصادية لفلسطين على الاستيعاب. لم تراود العرب أي شكوك حول هذا الأمر، فهو واضح ضمنا حيث أنه ليس ثمّة شروط أخرى تتيح إمكانية الهجرة. "هذا فقط" ما يسعى إليه الصهاينة، وهو بالتحديد ما يرفضه العرب لأنه سيحول اليهود إلى أكثرية، وعندها تقوم دولة يهودية، بطبيعة الحال، ويكون مصير الأقلية العربية معتمدا على النوايا الحسنة لليهود، ولكن ألم يكن اليهود أنفسهم هم الذين أخبرونا كم هو من "المريح" أن يكون المرء من الأقلية؟ ليس هناك أي سوء تفاهم. يسعى اليهود إلى أمر واحد – حرية الهجرة؛ وما يرفضه العرب تحديدا هو الهجرة اليهودية.

إن ادعاء محرر الصحيفة العربي بسيط وواضح كل الوضوح، ومن المجدي حفظه عن ظهر قلب، ووضعه في لب تفكيرنا بشأن مستقبل القضية العربية. ليس مهما ما إذا كنا سنقتبس كلمات هرتسل أو هربرت صموئيل لتبرير جهودنا الاستيطانية، فالاستيطان ذاته يحمل في داخله تبريره الوحيد، غير القابل للإلغاء والمفهوم لكل يهودي عاقل. يمكن أن يكون للاستيطان هدف واحد فقط ولكن العربي غير مستعد لقبول هذا الهدف. هذه طبيعة الأمور وتغيير هذه الطبيعة مستحيل.

[ج]

تبدو الخطة التالية جذّابة جدا في رأي الكثيرين: لا بد من الحصول على قبول بالصهيونية، ليس من عرب فلسطين لأن ذلك مستحيل، بل من سائر أجزاء العالم العربي وبضمنها سورية، بلاد ما بين النهرين (العراق)، الحجاز وحتى مصر. وحتى لو كان هذا الأمر ممكنا فلن يكون كافيا لتبديل الحال بشكل جذري، لأن موقف العرب في فلسطين تجاهنا سيبقى على حاله.

إن توحيد ايطاليا تحقّق، في حينه، مقابل بقاء ترنت وتريستي رازحتين تحت الحكم النمساوي، ولكن سكان ترنت وتريستي الإيطاليين إضافة إلى عدم تسليمهم بالوضع الناشئ واصلوا حربهم ضد النمسا بحماس مضاعف. ولو كان ممكنا (وأنا أشك في ذلك) إقناع عرب بغداد ومكة أن فلسطين ليست لهم وأنها منطقة تخوم صغيرة وغير مهمة، تبقى فلسطين بالنسبة لعرب فلسطين ليست منطقة تخوم بعيدة بل وطنهم الوحيد، أساس وركيزة وجودهم القومي الذاتي. وعليه سيكون من الواجب عندها الاستمرار في الاستيطان ضد إرادة عرب فلسطين، أي بنفس الظروف التي يتم فيها الآن.

كذلك، فإن التوصل إلى اتفاق مع العرب غير الفلسطينيين هو من قبيل الوهم غير القابل للتحقق، فمتى يرضى العرب الوطنيون من بغداد، مكة ودمشق بدفع ثمن جدي هو بمثابة التخلي عن الحفاظ على الطابع العربي لفلسطين، تلك البلاد المتموقعة في مركز الأقطار "الفيدرالية" العربية والتي تقسمها إلى نصفين. لكي يقبلوا بذلك علينا أن نعرض عليهم مقابلا كبيرا جدا. من الواضح أن ثمّة طريقتين

ممكنتين لدفع مقابل كهذا: إما بالمال وإما بالمساعدة السياسية، أو بالاثنين معا. ولكننا لا نملك أن نعرض عليهم لا هذا ولا ذاك. ففيما يتعلق بالمال سيكون من دواعي السخرية أن نفكر بأننا سنقدر على تمويل بلاد ما بين النهرين أو الحجاز في الوقت الذي لا يكفي فيه مالنا لفلسطين فقط. من الواضح، حتى للصبية، أن هذه البلاد، ذات قوة العمل الرخيصة، تستطيع الحصول على رأس المال بسهولة أكبر من قدرتنا نحن على الحصول عليه من أجل فلسطين. وعليه، فان الأحاديث بشأن موضوع الدعم المالي ليست سوى خداع نفس صبياني أو تهوّر فاقد للضمير. حقا، سوف يكون في ذلك فقدان ضمير كامل من طرفنا إذا ما تحدثنا بجدية عن تقديم دعم سياسي للقومية العربية: فهذه القومية العربية تسعى إلى ما سعت إليه القومية الإيطالية حتى العام ١٨٧٠، إلى الوحدة والى الاستقلال الرسمي. وفي ترجمة ذلك إلى لغة بسيطة، يعني هذا الأمر طرد بريطانيا من بلاد ما بين النهرين ومن مصر، وطرد فرنسا من سورية ثم ربما من تونس، الجزائر والمغرب. إن كل مساعدة من طرفنا لهذا التوجه، حتى لو كانت غير مباشرة، هي بمثابة انتحار وخيانة. نحن نستعين بالانتداب البريطاني، وفرنسا وقّعت على وعد بلفور في سانت ريمو. لا يمكننا أن نشارك في مؤامرة سياسية هدفها طرد الانكليز من قناة السويس ومن الخليج الفارسي والتدمير الكامل لفرنسا كدولة استعمارية عظمى. هذا اللعب المزدوج ليس محظورا فقط، بل إنه من غير اللائق التفكير به. سوف يسحقوننا – وبخزي سنكون من مستحقيه – حتى قبل أن نتمكن من التحرك في هذا الاتجاه.

نستنتج من ذلك أنه لا يمكننا أن نعد لا عرب فلسطين ولا سائر العرب بأي تعويض عن فلسطين، والاتفاق الطوعي معهم غير وارد في الحسبان. لهذا، فإن هؤلاء الذين يعتقدون بأن مثل هذا الاتفاق هو بمثابة Sine qua non condition (شرط لا غنى عنه) بالنسبة للصهيونية يمكنهم أن يقولوا الآن: non (لا) وأن يغادروا الصهيونية. استيطاننا– إما أن يتوقف وإما أن يتواصل ضد رغبة السكان الأصليين، وبمقدوره أن يتواصل ويتطور بحماية قوة مدافعة مستقلة عن السكان المحليين – جدار حديدي لن يكون بمقدور السكان المحليين اختراقه.

هذه بالمجمل هي سياستنا تجاه العرب، وعرضها بأية صورة أخرى ليس إلا نوعا من النفاق. ليس فقط أن عليها أن تكون كذلك، بل هي كذلك، سواءً اعترفنا أو لم نعترف بالأمر. لماذا نحتاج نحن إلى وعد بلفور، ولماذا نحتاج إلى الانتداب؟ معناهما بالنسبة لنا كامن في أن قوة خارجية قطعت على نفسها التزاما بأن تحقق في هذه البلاد ظروف إدارة وأمن يصبح بحسبها السكان الأصليون، على الرغم من رغبتهم، محرومين من أية فرصة لعرقلة استيطاننا بطريقة إدارية أو مادية. ونحن جميعا، بدون استثناء، نحث هذه القوة الخارجية، يوميا، على تأدية دورها بحزم ودون رأفة.

في هذا الموضوع، ليس ثمة فارق جدي بين "العسكريين" وبين "النباتيين" بيننا. هؤلاء يفضلون جدارا حديديا من الحراب اليهودية، آخرون يفضلون حرابًا إيرلندية، أما التابعون للمعسكر الثالث، وهم المؤيدون للاتفاق مع بغداد، فمستعدون للاكتفاء بحراب بغداد (وفي هذا نقيصة غريبة وخطيرة)، ولكننا جميعا نبذل الجهد ونعمل، ليل نهار، في كل ما يتعلق بالجدار الحديدي. على الرغم من ذلك، فإننا نلحق الضرر بقضيتنا بكثرة الحديث عن اتفاق، إذ إننا نجعل دولة الانتداب العظمى تعتقد أن الأمر ليس متمحورا حول الجدار الحديدي وإنما حول محاولات التخاطب المتجددة صباح مساء. إن حديثًا من هذا النوع يدمر قضيتنا، ولذلك فان مهمة تحقيره والإشارة إلى خياليته وانعدام نزاهته هي بمثابة واجبنا المقدس.

[د]

في المقام الأول، ردًا على الادعاء المألوف بأن النظرة المطروحة أعلاه غير أخلاقية أقول بأن ذلك غير صحيح، فهي واحدة من اثنتين: إما أن الصهيونية أخلاقية وإما أنها غير أخلاقية، وقد كان علينا أن نبتّ في هذا السؤال قبل أن أخذنا بالحسبان اعتبارنا الأول.

وعندما حسمنا الأمر – فإننا حسمناه بالإيجاب. إذا كانت الصهيونية أخلاقية، أي عادلة، فيجب تحقيق العدل من دون الأخذ بعين الاعتبار موافقة أو عدم موافقة أي شخص، وإذا أراد أ، ب أو ج إعاقة تحقيق العدل بالقوة لأنه غير مريح لهم، يكون من الواجب التضييق عليهم في ذلك، وبالقوة أيضا. هذه هي نظرية الأخلاق وليس ثمة أخلاق أخرى.

في المقام الثاني، ليس معنى هذا أنه يجب عدم التفكير في إمكانية عقد اتفاق طوعي، إلى حد ما، مع عرب فلسطين. ولكن طالما بقي لدى العرب بصيص من الأمل بالتخلص منا فلن يقايضوا أملهم هذا، لا مقابل بضع كلمات حلوة ولا مقابل شريحة خبز مغذّية مدهونة بالزبدة. لذلك، ولذلك بالتحديد، لا يجوز اعتبارهم رعاعًا بل شعب حي، حتى لو كان شعبا متخلفا. يوافق الشعب الحي على تقديم تنازلات في قضايا مثل هذه القضايا

العظيمة والمصيرية عندما ينعدم الأمل، وعندما لا يظهر للعيان أي شق في الجدار الحديدي. عندها فقط تفقد مجموعات متطرفة شعارها "لا، في جميع الأحوال" سحرها، وينتقل نفوذها إلى المجموعات المعتدلة. عندها فقط يأتي إلينا هؤلاء المعتدلون حاملين اقتراحا للتنازلات المتبادلة، ويباشرون التفاوض معنا، باستقامة، حول قضايا عملية، مثل الضمانات لعدم الطرد من البلاد، أو حول المساواة في الحقوق أو بشأن حكم ذاتي وطني مستقل؛ وأنا أومن وآمل أننا سنقدر حينها على منحهم ضمانات كهذه تهدئ من روعهم، فيستطيع الشعبان أن يعيشا جنبا إلى جنب بسلام وبعلاقات ندّية. ولكن الطريق الوحيدة إلى مثل هذا الاتفاق هي الجدار الحديدي، أي تعزيز السيطرة على فلسطين بحيث لا تكون معرضة لأي تأثير عربي، وأقصد السيطرة التي يحارب العرب ضدها. وبكلمات أخرى، من ناحيتنا، فإن الطريق الوحيدة نحو اتفاق مستقبلي تتجسد في الرفض التام لكل محاولات التوصل إلى اتفاق في الحاضر.

[ترجمة خاصة بـ "قضايا إسرائيلية" عن اللغة العبرية، أعدها نبيل الصالح]

صدر عن "مدار"

مدار المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية
MADAR The Palestinian Forum for Israeli Studies